الفصل الخامس

من أسباب صلاح السريرة

إن الله ﷻ بفضله ورحمته إذا علم من عبده الصدق في طلبه وحرصه على إصلاح سريرته وتنقيتها من الشوائب، وفَّقه ﷻ إلى الوسائل التي تصلح بها القلوب والسرائر، وأعانه على الأخذ بها، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

الوسيلة الأولى:

دعاء الله ﷻ والتضرع بين يديه في أوقات الإجابة لإصلاح السريرة وتنقية القلب من مفسداته، وهذه الوسيلة من أعظم وسائل إصلاح السرائر، حيث لا يملك القلوب وتثبيتها وإصلاح فسادها إلا الله ﷻ، فهو ﷻ مقلب القلوب ومصرفها، وهو المتفضل بالإيمان واليقين وزيادتهما، فالمتعين على المؤمن التوجه إلى الله ﷻ وحده، وسؤاله ذلك منه وحده، فلا مثبت إلا من ثبته الله، ولا محفوظ إلا من حفظه الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، والمخذول من خذله الله.

obeikandl.com

يقول مطرف بن عبدالله بن الشخير رحمه الله تعالى: (تذاكرت ما جماع الخير. فإذا الخير كثير: الصيام والصلاة، وإذا هو في يد الله ﷻ، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله، إلا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير في الدعاء)[1].

وهذا هو هدي نبينا محمد ﷺ أكمل البشر إيماناً وهدىً وصلاحاً، وهو رسول الهداية والنور، ومع ذلك كان كثيراً ما يدعو بطلب الهداية والسداد، وتثبيت القلوب وسلامتها وإصلاحها وتطهيرها من أدناسها، وهكذا شأن أتباعه والمحبين له ولسنته، ومن أشهر الأدعية النبوية في هذا الشأن ما يلي:

- قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»[2].
- قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم اهدني وسددني، اللهم إني أسألك الهدى والسداد**»[3].

---

(١) الإبانة، لابن بطة: (٢/ ١٩٥).
(٢) مسلم: (٢٦٥٤).
(٣) مسلم: (٢٧٢٥).

- قوله ﷺ في دعائه: «**رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سخيمة قلبي**»[1].
- قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[2].
- قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»[3].
- قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين**»[4].

---

(١) أبو داود: (١٥١٠)، والترمذي: (٣٥٥١) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٣٤٨٥).

(٢) مسلم: (٢٧١٧).

(٣) مسلم: (٢٧٢٠).

(٤) أحمد: (٣/ ٤٢٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (٣/ ٢٣).

obeikandl.com

- قولـه ﷺ في دعائه: «**اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»(١).
- قوله ﷺ في دعائه: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشـد، وأسـألك شـكر نعمتـك وحسـن عبادتك، وأسـألك قلباً سليماً ولسـانـاً صادقـاً، وأسأل من خير ما تعلـم، وأعـوذ بك من شر ما تعلم، وأسـتغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب**»(٢).

الوسيلة الثانية:

معرفـة الله عـز وجـل وتعظيمه وإجلاله ومحبتـه بمعرفة أسـمائه الحسـنى وصفاته العلى ولا سـيما أسـماءه ﷻ (السميع، البصـير، الرقيب، الشـهيد، العظيم، الكبير، الخبـير، اللطيف، الرحيـم، العزيز، الرحمـن، الرحيـم، الظاهر، الباطـن، الغني، الكريـم)، والتـي تثمـر في القلب الخشـية والخـوف والرجاء، والمحبة والتعظيم والإجلال، والتوكل والتسليم لأوامره ﷻ.

(١) النسائي: (٣/ ٥٤)، وصححه الألباني في صحيح النسائي: (١٢٣٧).
(٢) النسائي: (٣/ ٥٤)، وأحمد: (٤/ ١٢٥) ورجال أحمد ثقات، ورواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب سؤال الثبات في الأمر.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (فإن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمْع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلى وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلأ به سروراً ومحبة... وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبته وذكره والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره ومنه أبعد)[1].

ويقول في موطن آخر: (علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً. وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يثمر

(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية: (ص ١٦-١٨).

له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله ﷻ، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح. ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته، توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه. وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها)[1].

ويتحدث في موطن ثالث عن التعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى: «الأول والآخر والظاهر والباطن»، فيقول: (والتعبد بهذه الأسماء رتبتان: الرتبة الأولى أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه. **والمرتبة الثانية** من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه. فيعامل سبقه

(١) مفتاح دار السعادة: (ص ٥١٠-٥١٣).

تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه، والتوكل على غيره... ثم تتعبد له باسمه الآخر بأن تجعله وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى يُنتهَى إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر. وأما التعبد باسمه الباطن فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك، فإنه عنده علانية، وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة، وزك له باطنك، فإنه عنده ظاهر)[1].

ويقول العز بن عبدالسلام: (فهم معاني أسماء الله ﷻ وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات)[2].

(١) طريق الهجرتين: (ص ٢٥، ٢٦).

(٢) شجرة المعارف: (ص ١).

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: (إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان ورَوْحه، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه)[1].

واختم هذه الوسيلة من وسائل إصلاح السريرة ببعض النماذج من سيرة السلف الصالح، الذين عرفوا أسماء الله ﷻ، وتعبدوا الله تعالى بها، وظهرت آثارها في إصلاح بواطنهم وظواهرهم.

لما حضر معاذ بن جبل رضي الله عنه الموت، قال: (انظروا أصبحنا؟ فأتي فقيل: لم تصبح. فقال: انظروا أصبحنا؟ فأتي فقيل له: لم تصبح. حتى أتي في بعض ذلك. فقيل: قد أصبحت: قال أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحباً بالموت مرحباً، زائر مغيب، حبيب جاء على فاقة، اللهم إني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر)[2].

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (باختصار): (ص٤١).
(٢) حلية الأولياء: (١/ ٢٣٩).

عاد حماد بن سلمة سفيان الثوري، فقال سفيان: (يا أبا سلمة، أترى الله يغفر لمثلي؟ فقال حماد: والله لو خيرت بين محاسبة الله إياي وبين محاسبة أبوي، لاخترت محاسبة الله، وذلك لأن الله أرحم بي من أبوي)[1].

قال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظني فقال: (لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت)[2].

وقال ابن خبيق: قال لي حذيفة المرعشي: إنما هي أربعة. عيناك ولسانك وهواك وقلبك. فانظر عينيك لا تنظر بهما إلى ما لا يحل لك، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا دغل على أحد من المسلمين، وانظر إلى هواك لا تهوى شيئاً يسخط الله ﷻ فما لم تكن فيك هذه الأربع الخصال، فالرماد على رأسك)[3].

وعن حاتم الأصم قال: (تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك)[4].

(١) سير أعلام النبلاء: (٧/ ٤٤٩).
(٢) إحياء علوم الدين: (٤/ ٣٩٨).
(٣) صفوة الصفوة: (٤/ ٢٦٨).
(٤) سير أعلام النبلاء: (١١/ ٤٨٦).

قال الخطيب: (أنبأنا الجوهري، أنبأنا المرزباني، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى حدثنا أبو العيناء قال: لما حج المهدي دخل مسجد رسول ﷺ فلم يبق أحد إلا قام إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه فلقد قامت كل شعرة في رأسي)[1].

وقال إبراهيم بن الأشعث: (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف والحزن، وفاضت عيناه وبكى، حتى يرحمه من بحضرته)[2].

وعن معمر عن أيوب عن نافع أو غيره: أن رجلاً قال لابن عمر رضي الله عنهما: (يا خير الناس أو ابن خير الناس. فقال: ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه)[3].

---

(١) المرجع السابق: (٧/ ١٤٣).

(٢) حلية الأولياء: (٨/ ٨٤).

(٣) سير أعلام النبلاء: (٣/ ٢٣٦).

obeikandl.com

الوسيلة الثالثة:

قصر الأمل والزهد في الدنيا والتذكر الدائم للموت ولليوم الآخر، والاستعداد للقاء الله ﷻ، ذلك لأن من أعظم ما يكدر القلوب ويفسد السرائر الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، لأن القلب عندما يمتلأ بحب الدنيا وإيثارها على الآخرة لا تجد المواعظ إليه سبيلا، بل تتوارد عليه الآفات والأمراض حتى تكدره، ويصبح مظلماً، لا يعرف معروفاً، لا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه. قد أصبحت الدنيا همه، يحسد عليها، ويحقد، ويشح ويبخل، ويحب ويبغض، ويفرح ويحزن من أجلها، وكفى بذلك مرضاً وهلاكاً للقلب وإفساداً للسريرة. والعكس من ذلك حينما يمتلأ القلب بذكر الموت وما بعده من أمور الآخرة، ويتجافى عن الدنيا وزينتها الفانية، فإن القلب يصفو ويستنير، والسريرة تصلح، وتثمر لصاحبها الثمار اليانعة في الدنيا والآخرة.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده)[1]. ولكن كيف يتم للعبد زهده في الدنيا

(١) حلية الأولياء: (١/ ١١٧).

وإقبالـه على الآخـرة؟ يجيب الإمام ابن القيـم رحمه الله تعالى عـلى ذلـك، فيقول: (لا تتـم الرغبة في الآخـرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظـر الأول: النظـر في الدنيـا وسرعـة زوالهـا وفنائهـا واضمحلالها ونقصها وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليهـا، وما في ذلك مـن الغصص والنغـص والأنكاد، وآخر ذلـك الزوال والانقطاع مع ما يعقب من الحسرة والأسـف، فطالبهـا لا ينفـك من هم قبل حصولها، وهـم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها، وبقائهـا وشرف مـا فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الـذي بينه وبين مـا هاهنا، فهي كما قـال ﷻ: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصـة منقطعـة ومضمحلة. فإذا تم له هـذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه)[1].

ويقول أيضاً: (فإن من اسـتعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا ومطالبها، وخمدت من نفسه نيرانُ الشهوات، وأخبتَ

(١) الفوائد: (ص١٧٧).

قلبُـه إلى ربِّه تعـالى، وعكفت همته على الله وعـلى محبته وإيثار مرضاته. واسـتحدث همَّةً أخرى وعلومًـا أخر، وولد ولادةً أخرى تكون نسـبةُ قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسـبة جسـمه إلى هـذه الـدار، بعـد أن كان في بطـن أمِّه، فيولـد قلبُه ولادةً حقيقيـة، كما ولد جسـمه حقيقـة. وكما كان بطـن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار، فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة، فخروج قلبه عن نفسـه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار. وهذا معنى مـا يذكر عن المسـيح ﷺ أنَّه قال: «يا بنـي إسرائيل، إنَّكم لن تلجوا ملكوتَ السماء حتَّى تولدوا مرَّتين».

ولَّـما كان أكثر النـاس لم يولدوا هذه الـولادة الثانية ولا تصوروها - فضلاً عن أن يصدقوا بها - فيقول القائل: كيف يولـد الرجل الكبير أم كيف يولد القلـب؟! لم يكن لهم إليها همَّـة ولا عزيمـة، إذ كيف يعزم على الشيء مـن لا يعرفه ولا يصدّقه؟ ولكن إذا كُشِـفَ حجـاب الغفلة عن القلب صدَّق بذلك، وعلم أنَّه لم يولد قلبُه بعد.

والمقصـود أنَّ صـدق التأهّـب للقـاءَ الله هـو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى

الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاءِ والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمالِ القلوب والجوارح. فمفتاحُ ذلك كلّه صدقُ التأهب والاستعداد للقاءِ الله، والمفتاح بيد الفتَّاحِ العليم، لا إلـهَ غيره ولا رب سواه)[1].

ويتحدث في موطن ثالث عن قصر الأمل ودوره في الزهد في الدنيا وصلاح القلوب، فيقول رحمه الله تعالى: (فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة. وهو من أنفع الأمور للقلب. فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مَرَّ السحاب، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة. فيقوم بقلبه - إذا داوم مطالعة قصر الأمل - شاهدٌ من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنه قد ترحلت مُدْبِرَة، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء، يتصابُّها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال،

(١) طريق الهجرتين: (١/ ٣٨١)، دار عالم الفوائد.

ويرى بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطُها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعاً.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦])[1]. أ.هـ

وما أجود شعره رحمه الله تعالى حين قال في ذلك:

والله لم تخرج إلى الدنيا للذة
عيشها أو للحطام الفاني
لكن خرجت لكي تعد الزاد
للأخرى فجئت بأقبح الخسران
أهملت جمع الزاد حتى فات
بل فات الذي ألهاك عن ذي الشان

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٩).

والله لـــو أن القلـــوب سليمـــة

لتقطعت أسفـــاً من الحرمـــان[1]

ومما له علاقة بالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة المبادرة في تـدارك أوقـات العمر النفيسـة، والحذر مـن إهدارها فيما لا ينفـع، فضلاً عما يضر، فإن من الآفـات التي تضر بالقلب ضيـاع الأوقـات، قـال ابن القيم رحمـه الله تعـالى: (وكل آفة تدخل على العبد فسببها ضياع الوقت وفساد القلب، وتعود بضياع حظه مـن الله ﷻ، ونقصان درجته ومنزلته عنده، وقال بعـض الشـيوخ: احـذروا مخالطة مـن تضيع مخالطتـه الوقت وتفسد القلب)[2].

الوسيلة الرابعة:

مجالسـة الصالحين أصحـاب السرائر الصالحـة، والبعد عن أهل الدنيا وأصحاب القلوب المريضة.

روي عـن عمـر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قـال: (لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سـبيل الله،

(١) نونية ابن القيم: (٢/ ٥٤٧).

(٢) رسالة من ابن القيم لأحد إخوانه: (ص ٣، ٤)، ت: عبدالله المديفر.

obeikandl.com

ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر)[1].

وقال أيضاً: (اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله)[2].

ومن أنفع المجالس وأصلحها مجالس أهل العلم والتقى لأنه بالعلم الذي لديهم تحرق الشبهات، وبالتقوى والورع وحسن السريرة تحرق الشهوات، وترى فيهم القدوات في خوفهم من الله تعالى، وتعظيمهم له ﷻ ولأوامره ونواهيه، فإذا زالت الشبهات بالعلم، والشهوات بالتقوى صلحت السرائر والقلوب. ومن علامة توفيق الله ﷻ للعبد أن يرزقه أصحاباً صالحين، تذكر رؤيتهم الله ﷻ. ولا يتم الانتفاع بمجالسة الصالحين إلا بمفارقة أصحاب السوء وأصحاب السرائر الفاسدة واعتزالهم، والحذر من كلامهم وكتاباتهم، التي تملأ القلوب بالشبهات والشهوات، ويدخل في ذلك الإكثار من قراءة سير الصالحين الأتقياء والحرص على الاقتداء واللحاق بهم.

(١) مدارج السالكين: (١/ ٤٤٩).
(٢) المرجع السابق.

الوسيلة الخامسة:

الإكثار من ذكر الله ﷻ، والأعمال الصالحة، وترك المعاصي.

وعد الله ﷻ عباده الذين يتقربون إليه بفعل ما يؤمرون به، وترك ما ينهون عنه، بالتثبيت والاستقامة على الصراط المستقيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عبده. فكل ما كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً.

obeikandi.com

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾، فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً، والقول الثابت هو القول الحق والصدق)[1] أ.هـ.

وكما جاء ذلك في الحديث القدسي الصحيح والذي فيه: «... **وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...**»[2] الحديث.

فمن هذا الحديث يتبين أثر الأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل، ولا سيما المخفي منها في حفظ الله ﷻ لعبده المؤمن الذي هذا شأنه، وذلك بحفظ جوارحه وقلبه، فلا تمتد إلى ما يسخط الله تعالى، ومن أفضل الأعمال الصالحة التي لها أثر في إصلاح السرائر كثرة ذكر الله ﷻ في اليوم والليلة، والثناء عليه ﷻ وتحميده وتسبيحه وتمجيده واستغفاره.

(١) بدائع التفسير: (١/ ١٧).
(٢) البخاري، كتاب الرقاق: (٦٥٠٢).

فذكـر الله ﷻ يذيب قسـوة القلـب ويزيل صـدأه. قال رجل للحسـن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسـوة القلب. قال: أذبه بالذكر)[1].

كـما أن في ذلك أكبر العـون من الله تعالى لعبده، وحفظه لـه من الزيغ والانحراف باطناً وظاهراً، فقد جاء في الحديث القـدسي: «**أنـا عند ظـن عبـدي بي، وأنا معـه إذا ذكرني، فإن ذكـرني في نفسـه ذكرته في نفسي، وإن ذكـرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم....**»[2] الحديث.

وأفضـل الذكر قراءة القرآن وتدبـره، حيث إن في ذلك حياة القلوب وصلاحها واطمئنانها.

ومـن أسـباب صـلاح السريـرة البعـد عـن الذنـوب والمعاصي، لأن مـن عقوبات الذنوب مرض القلب وتكدره وفساده، لا سيما إذا تراكمت عليه الذنوب، وحصل الإصرار عليهـا، يقـول ابن القيم رحمـه الله تعالى: (ومـن عقوباتها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه...

(١) الوابل الصيب: (ص ٦٢).

(٢) البخاري، كتاب التوحيد: (٧٤٠٥)، ومسلم: (٢٦٧٥).

فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها، لا دواء لها إلا تركها... ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعني دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار - فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب)[1].

الوسيلة السادسة: محاسبة النفس:

قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال الرسول ﷺ: «**الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله ﷻ**»[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم

(١) الداء والدواء: (ص ٧٨، ٧٩) باختصار.

(٢) الترمذي، باب الكيس من دان نفسه، وحسنه الترمذي.

في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨])[١].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوما، وخرجت معه، حتى دخل حائطاً، فسمعته يقول وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ. والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك)[٢].

وعن الحسن رحمه الله تعالى قال: (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته)[٣].

وفي ضوء هذه النصوص والآثار يتبين لنا أهمية محاسبة النفس، وأثر ذلك في إصلاح الأحوال والقلوب، والتخلص من آفاتها، ومما يفسدها، كما يتبين لنا أن فساد السريرة إنما يحصل بترك المحاسبة والاسترسال مع النفس وهواها.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى عدة مصالح في محاسبة النفس، منها: (الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات

(١) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا: (ص ٣٦).

الله تعالى. وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً... وقال يونس بن عبيد: إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة... ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه شيئاً، وهي قليلة المنفعة جدًّا)[1].

وهذه أبيات للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يحاسب فيها نفسه، ويزري عليها، وهو من هو علماً وزهداً وإمامة:

(بُنَيَّ أبي بكر[2] كثير ذنوبه
فليس على من نال من عرضه إثم
بُنَيَّ أبي بكر جهول بنفسه
جهول بأمر الله أنى له العلم
بني أبي بكر غدا متصدراً
يعلِّم علماً وهو ليس له علم

(١) انظر: إغاثة اللهفان: (١/ ٧٨-٨٠).
(٢) (بني أبي بكر) يقصد ابن القيم نفسه، وأبو بكر كنية والده.

بنـــي أبـــي بكـــر غـــدا متمنيـــاً
وصـــال المعـــالي والذنـــوب لـــه هـــمُّ
بنـــي أبـــي بكـــر يـــروم ترقيـــا
إلى جنـــة المـــأوى وليـــس لـــه عـــزم
بنـي أبي بكـــر يـرى الغـــرم في الذي
يـزول ويفنـى والـذي تركـــه الغنـم
بنـي أبـي بكـــر لقـد خـاب سـعيـه
إذا لم يكـن في الصالحـــات لـه سـهم
بنـــي أبـــي بكـــر كما قـــال ربـــه
هلـوع كنـــود وصفه الجهـل والظلم
بنـــي أبـي بكـــر وأمثالـــه غـــدوا
بفتواهـــم هـــذي الخليقـــة تأتـــم
وليـس لهـم في العلـم بـاع ولا التقى
ولا الزهـد والدنيـا لديهـم هـي الهـم
فوالله لـــو أن الصحابـــة شـاهـــدوا
أفاضلهم قالوا هم الصم والبكم)[1]

(١) الوافي بالوفيات: (١/ ٢٦١).

وهذا هو ابن الجوزي رحمه الله تعالى يحاسب نفسه، فيقول: (تفكرت في نفسي يوماً تفكر محقق، فحاسبتها قبل أن تحاسب، ووزنتها قبل أن توزن، فرأيت اللطف الرباني، من بدء الطفولة وإلى الآن، أرى لطفاً بعد لطف، وستراً على قبيح، وعفواً عما يوجب عقوبة، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان.

ولقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعاً، ولو كشف للناس بعضها لاستحييت، ولا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب، حتى يظن فيَّ ما يظن في الفساق، بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي، وقعت بتأويلات فاسدة، فصرت إذا دعوت أقول: اللهم بحمدك وسترك عليَّ اغفر لي، ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي، ثم أنا أتقاضى منه مراداتي، ولا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه، ولا بشكر على نعمة، فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم، وكوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به.

وقد كنت أرجو مقامات الكبار، فذهب العمر وما حصل المقصود، فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما

نحت، فأعجبتني نياحته فكتبتها هاهنا، قال لنفسه: يا رعناء تقوِّمين الألفاظ ليقال: مناظر. وثمرة هذا أن يقال: يا مناظر، كما يقال للمصارع الفاره. ضيعت أعز الأشياء وأنفسها عند العقلاء، وهي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم المناظر، ثم ينسى الذاكر والمذكور إذا درست القلوب! هذا إن تأخر الأمر إلى موتك، بل ربما نشأ شاب أفره منك فموهوا له وصار الاسم له. والعقلاء عن الله تشاغلوا بما - إذا انطووا - نشرهم وهو العمل بالعلم، والنظر الخالص لنفوسهم. أف لنفسي، وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم وما عبق بها فضيلة، إن نُوظِرَت شَمَخَتْ، وإن نُوصِحتْ تَعَجْرفت، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة. توفر في المخالطة عيوباً تبلى، ولا تحتشم نظر الحق إليها. وإن انكسر لها غرض تضجرت، فإن امتدت بالنعم اشتغلت عن المنعم.

أف والله مني، اليوم على وجه الأرض وغداً تحتها، والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي

وأنا بين الأصحاب، والله إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني، كيف سترني وأنا أتهتك، ويجمعني وأنا أتشتت؟! وغداً يقال: مات الحبر العالم الصالح، ولو عرفوني حق معرفتي بنفسي ما دفنوني، والله لأنادين على نفسي نداء المتكشفين معائب الأعداء، ولأنوحن نوح الثاكلين إذ لا نائح لي ينوح عليَّ لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها، وغطاها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم اغفر لي كذا بكذا. والله ما التفت قط إلا وجدت منه ﷻ بِرَّاً يكفيني ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء، ولا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها. هذا فعله معي وهو رب غني عني، وهذا فعلى وأنا عبد فقير إليه، ولا عذر لي، فأقول: ما دريت أو سهوت. والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً، ونور قلبي بالفطنة، حتى إن الغائبات، والمكتومات تنكشف لفهمي.

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا، واحرماني لمقامات الرجال الفطناء، يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله، وشماتة العدو بي، واخيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت

الجوارح عليَّ، واخذلاني عند إقامة الحجة، سخر والله مني الشيطان، وأنا الفطن. اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، وقد جئتك بعد الخمسين، وأنا من خَلِقِ المتاع، وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم، فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي)[1] أ.هـ.

ومما يعين على المحاسبة أن يخصص المرء لنفسه أوقات يخلو فيها بنفسه، ويناجي فيها ربه ﷻ ويقلل فيها من الخلطة بالناس، ومن أفضل هذه الأوقات ما بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وما قبل صلاة المغرب حتى تغرب الشمس، وشيء من الدلجة في آخر الليل. وقد جاء في فضل هذه الأوقات وذكر الله فيها أحاديث، من أشهرها قوله ﷺ: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة**»[2]، والغدوة أول النهار، والروحة آخره، والدلجة آخر الليل.

(١) صيد الخاطر: (ص ٤٦٤).

(٢) البخاري: (٣٩)، ومسلم: (٢٨١٦).

ومـن أفضـل أوقـات الخلوة والمحاسـبة اعتـكاف العشر الأواخر مـن رمضان ففيها تتحقق المحاسـبة، وفوائد أخرى تصلح بها القلوب وتتنقى بها السرائر، ومن هذه الفوائد:

- التفـرغ للنفـس ومحاسـبتها، وتفقـد أخطائهـا ومثالبهـا ومعاصيهـا في ماضي حياتهـا، وأثر ذلك في صـدق التوبة، وتطامن النفس وتواضعها، وذلك عندما يعلم المحاسـب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة.
- الشـعور الشـديد بالفاقـة والفقـر إلى الله ﷻ، والـضرورة القصوى لعونـه ﷻ وإغاثته وتوفيقه، والشـعور بضعف النفس وخطر الاعتماد عليها.
- فراغ القلب في الاعتكاف من مشـاغل الدنيا ومشكلاتها، وأثـر ذلك في مـلء القلب بذكـر الله ﷻ، والإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور.
- الحيـاة مـع كلام الله ﷻ والعيـش مـع كتابـه العزيز، وما يحـوي من ذكر للآخرة ومـا فيها، وذكر أنبيائـه وأوليائه، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم، وبما أصابهم في سبيل الله ﷻ، وكيف صبروا وصابروا مع

مـا في القـرآن من ذكـر الله ﷻ وأسـمائه وصفاته، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به، آناء الليل وأطراف النهار.

- الانقطـاع عن الناس وقلة الاتصـال بهم وبكلامهم، وأثر ذلـك في صفاء القلب وتقبلـه للمواعظ والزواجر، مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها.
- في الاعتـكاف نقلـة من حياة الترف مـع الأهل والأولاد في المسـاكن المترفـة والفـرش الناعمـة إلى حيـاة الاعتزال والمسـكنة والفراش الخشـن والأكل القليل، وهذا بدوره يؤثـر في حيـاة المعتكـف ونظرتـه للدنيـا، مع مـا يصاحب ذلك من النوم القليـل، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشـيط النفـس، لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة.
- في الاعتـكاف فـرص للاسـتزادة مـن الصالحـات: كنوافل الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، لوجود التفرغ التام.
- في الاعتـكاف وحبـس النفس في مكان معـين مجال لتربية النفـس عـلى الصـبر والمصابرة، واكتشـاف قـوة التحمل، والصـبر عند النفس، وفي هـذا ترويض للنفس وتوطئة لها

obeikandl.com

عـلى النقلات المفاجئة - نسـأل الله ﷻ العافية والثبات - كـما أن في ذلك تذكـراً للصلحاء المبتلـين، الذين يمضون في معتقلاتهـم الأشـهر والسـنوات، فيتوجـه بالدعاء لهم بالتثبيت وسؤال الفرج لهم.

- كما أن في جلوس المعتكف في خلوته ورؤيته نفسـه وحيداً بعـد أن ينفـضّ الناس ويرجعـوا إلى بيوتهـم، إن في ذلك أثـراً بالغـاً في تذكر ذلك اليوم، الذي يوضـع فيه العبد في قـبره وحيـداً فريداً، بعد أن يرجع عنه مشـيعوه إلى أهليهم وبيوتهـم، وهذا له أثر في تذكر الموت والقبر ووحشـته، مما يعود بالفائدة على النفس بالاستعداد لهذا المصرع، وسؤال الله ﷻ حسـن الخاتمة، وهذا كله يربي على الزهد في الدنيا، وأنها ظل زائل ومتاع الغرور.
- في الانقطـاع عـن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشـوق إليهم، تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم، وهذا بدوره ينعكـس على بذل الجهد في إصـلاح النفس والأهل، لعل الله ﷻ أن يجمـع الشـمل في جنـات النعيم، التـي لا ينفد نعيمها ولا يفترق أهلها.

- في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة، يحصل فيها التفريط غالباً عند الكثير: كأداء السنن الرواتب، والصف الأول، والطمأنينة في الصلاة، وأداء الأذكار جميعها، وذلك لعدم المشاغل والمشكلات التي تصرف المصلي عن هذه الفضائل أو بعضها، ولعلها أن تكون ديدنه بعد الخروج من المعتكف.
- في الاعتكاف يحصل محاسبة النفس في علاقتها بالخلق وحقوقهم، بداية من الوالدين والأقارب والتقصير الحاصل نحوهم، وكذلك حقوق الآخرين، وما يحمل في القلب نحوهم، هل هو النصح والمحبة أم الغش والحقد والحسد. وأكتفي بهذا القدر من منافع الاعتكاف، ذكرته هنا بمناسبة الحديث عن محاسبة النفس.

الوسيلة السابعة: الدعوة إلى الله ﷻ والجهاد في سبيله:

إن في ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة لتزكية النفوس ومحاسبتها وتفقدها، حتى لا تقع في التناقض والاضطراب، ذلك أن الداعية إلى الله ﷻ وهو يدعو الناس إلى الخير وينهاهم عن الشر يبدأ

بنفسه وإصلاحها، حتى لا يكون من الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهذا باب من أبواب النفاق، وبذلك يسعى الداعية لإصلاح باطنه، ليكون متوافقاً مع ظاهره، وفي هذا إصلاح للسريرة، وكذلك الحال في الجهاد في سبيل الله ﷻ، فصلاح السرائر فيه أعظم وأكثر، إذ إن المجاهد قد عقد العزم على بيع نفسه لله ﷻ، ولا يصح البيع إلا بنقاء السريرة وإخلاص الجهاد لله ﷻ، ففي الجهاد تربية على الإخلاص، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، واليقين وصدق التوكل على الله ﷻ، والخوف منه وحده، وهذه كلها من مقومات وموجبات السريرة الصالحة. ولا تبلغ هذا الأعمال القلبية ذروتها في النفس إلا في ذروة سنام هذا الدين، ألا وهو الجهاد في سبيل الله ﷻ.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (وفي الجهاد أيضاً حقيقة الزهد في الحياة الدنيا وفي الدار الدنيا وفيه أيضاً حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله، لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية... وأعظم مراتب الإخلاص تسليم النفس والمال للمعبود)[1].

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٤٤٢).

وقال أيضاً: (ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، وفيه سنام التوكل وسنام الصبر فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل)[1].

(١) المرجع السابق.

obeikandl.com

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له ﷻ على توفيقه وامتنانه بالفراغ من الكتابة في هذا الموضوع المهم، والذي يتعلق بالقلوب وصلاحها، أسأل الله ﷻ أن يجعله خالصاً لوجهه نافعاً لعباده، كما أسأل الله ﷻ أن يرزقني وإخواني المسلمين صلاح السريرة والعلانية، وأن يختم لنا برضوانه وجنته، إنه سميع قريب مجيب. وقد تطرقت في هذا الموضوع إلى أهميته وأهمية العناية بشأن البواطن والسرائر، وذكرت ما ورد في ذلك من الآيات والأحاديث والآثار، كما ذكرت فيه ما عَنَّ في الخاطر من علامات السريرة الصالحة، وبعض ثمارها في الدنيا والآخرة، كما ذكرت فيه بعض الأسباب والوسائل المعينة على إصلاح السرائر.

وفي ختام هذه الدراسة أود ذكر بعض التنبيهات المتعلقة بإصلاح السريرة، ينبغي التنويه عليها:

التنبيه الأول:

الحذر من اليأس في إصلاح السريرة، ولا سيما حينما يحاسب الواحد منا نفسه ويفتش في قلبه، فيجد من الآفات

مـا قد يدخل من خلالها الشـيطان، فيخيل للإنسـان اسـتحالة الإصـلاح، فيحصـل اليأس والبقاء على سـوء الحـال، بل قد تزيـد وتتفاقـم الأمراض لعدم علاجها والسـعي في التخلص منهـا، وهذا ما يريده الشـيطان، فينبغي الحذر مـن هذا الأمر، وسد هذا الباب على الشيطان، والاستغاثة بالله ﷻ في إصلاح الباطن والظاهر، ومن يصدق الله ﷻ يصدقه الله جل وعلا.

التنبيه الثاني:

إن العنايـة بالسرائـر والبواطـن لا يعنـي أبـداً إهمـال الأعـمال الظاهـرة وأعـمال الجـوارح، لأن الظاهـر دليل على الباطـن، فإذا صلح الباطن صلح الظاهـر، وإصلاح الظاهر دليـل على صـلاح الباطن في الغالب، والإيـمان قول وعمل، قول القلب وعمله، وقول اللسان، وعمل الجوارح. وقد مر بنـا في مبحث أسـباب صلاح السرائر: أثـر الأعمال الصالحة الظاهرة في إصلاح القلوب وتزكية النفوس.

التنبيه الثالث:

الحـذر من الغلـو والوسوسـة في اتهـام النفـس ومقتها وذمها، وذكر آفات القلوب وإعلام الناس بها، بقصد الإزراء

على النفس وبيان حقيقتها، وأنها ليست كما يظن به الظانون من الخير. فالعبد يحمد ربه على الستر، ويستعين بالله ﷻ في إصلاح سريرته، وشأنه كله، ولا يدعي ما ليس فيه.

ويفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى المذموم من هذا الأمر والممدوح، فيقول: (سئل الحارث بن أسد عن علامات الصادق؟ فقال: أن لا يبالى أن يخرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على اليسير من عمله.

وهذا يحمد في حال، ويذم في حال، ويحسن من رجل، ويقبح من آخر. فيحمد إذا أظهر ما يجوز إظهاره، ولا نقص عليه فيه، ولا ذم من الله ورسوله، ليكتم به حاله وعمله، كما إذا أظهر الغنى وكتم الفقر والفاقة، وأظهر الصحة وكتم المرض، وأظهر النعمة وكتم البلية. فهذا كله من كنوز الستر، وله في القلب تأثير عجيب يعرفه من ذاقه. وشكى رجل إلى الأحنف بن قيس شكاة، فقال: يا ابن أخي، قد ذهب ضوء بصري من عشرين سنة، فما أخبرت به أحداً.

وأما الحال التي يُذمُّ فيها: فأن يظهر ما لا يجوز إظهاره، ليسيء به الناسُ الظن، فلا يعظموه. كما يذكر عن بعضهم:

أنه دخل الحمام، ثم خرج وسرق ثياب رجل، ومشى رويداً. حتى أدركوه فأخذوها منه وسبوه. فهذا حرام لا يحل تعاطيه، ويقبح أيضاً من المتبوع المقتدى به ذلك. بل وما هو دونه، لأنه يغر الناس، ويوقعهم في التأسي بما يظهره من سوء.

فالملامتية نوعان: ممدوحون أبرار، ومذمومون جهال. وإن كانوا في خفارة صدقهم. فالأولون: الذين لا يبالون بلوم اللوم في ذات الله، والقيام بأمره، والدعوة إليه، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍ﴾، فأحب الناس إلى الله: من لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تأخذه في الله لومة لائم.

والنوع الثاني المذموم: هو الذي يظهر ما يلام عليه شرعاً من محرم أو مكروه. ليكتم بذلك حاله. وقد قال النبي: «**لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه**»[1])[2].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٢٠٧٢١)، والترمذي: (٦٧).

(٢) مدارج السالكين: (٣/ ١٧٨، ١٧٩)، (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه)، صححه الألباني في صحيح الترمذي: (٢٢٥٤)، وفي صحيح الجامع: (٧٧٩٧).

التنبيه الرابع:

الحذر من الحكم على بواطن الناس من بعض أعمالهم وأقوالهم الظاهرة فإن ما في القلوب والسرائر لا يعلمه إلا الله ﷻ، وقد يكون في قلب رجل من الصلاح والخير ما لا يعلمه الناس ولكن الله يعلمه، ونحن لم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس إلا إذا ظهرت قرينة لا تحتمل اللبس من قول أو فعل يدل على فساد في الباطن. ولذا ينبغي للعبد أن لا يرى له فضل على أحد من المسلمين المستورين في أحوالهم، بمجرد أن يرى الإنسان من نفسه فضلاً في عبادة أو عمل صالح، فقد يكون عند المفضول خبيئة من عمل صالح لا يعلمها إلا الله ﷻ، وقد لا يكون عنده كثير عبادة ونوافل ولكن قام في قلبه من الإخلاص والإخبات واليقين والمحبة والخوف والرجاء ما ليس عند الفاضل، فيكون بذلك أقرب إلى الله ﷻ ممن فاقه كثرة في الأعمال، والمقصود أن يطامن العبد من نفسه ولا يحتقر غيره، فالعبرة بما في القلوب، وهذا لا يعلمه إلا علام الغيوب.

التنبيه الخامس:

تركز الحديث في هذه الدراسة على السرائر عند الأفراد، وهذا هو مقصد هذه الدراسة، ولكن يحسن التنبيه في هذه

الخاتمة إلى السرائر في إطار الدول والمؤسسات والطوائف والملل. فكم من الدول والطوائف لها ظاهر وباطن ظاهرها فيه الرحمة وباطنها فيه العذاب، ولا سيما في واقعنا المعاصر، عصر اللبس والتضليل، حيث يبدي فيه أصحاب السياسات والملل الباطنة للناس ما لا يخفون من النفاق وخبث الطوية والعقائد الفاسدة، ولكن يأبى الله عز وجل إلا أن يفضح سرائرهم، ويبدي للناس خبث بواطنهم وكذبهم وتدجيلهم، بما يظهره ﷻ على فلتات ألسنتهم ومواقفهم، بما يقدره من أحداث وابتلاءات وفتن، يتميز فيها الخبيث من الطيب.

ومن أبرز هذه الطوائف الباطنية رافضة العصر المحترقين حقداً على المسلمين الموحدين، فإن من أصول مذهبهم التقية، وهي تعني أن يخفوا عقائدهم الباطنة ويظهروا خلافها، خداعاً للمسلمين، فأبى الله ﷻ إلا أن يفضحهم، ويكشف حقيقتهم وعقائدهم الباطنة للناس، وذلك بما قدره ﷻ من أحداث وابتلاءات موجعة على أهل السنة في بلاد الشام وغيرها حيث كشفوا عن أقنعتهم، وظهر مشروعهم الباطني في المنطقة، حيث تحالف رافضة إيران والعراق وحزب الشيطان في لبنان مع النصيرية لحرب أهل

السنة وإقامة دولتهم الباطنية في المنطقة. وهذا من الحكم البالغة التي يحمد الله ﷻ عليها في هذه الأحداث حيث زال اللبس عن المخدوعين بتقية الروافض وفي هذا خير عظيم. ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

والمقصود التنبيه إلى سرائر وأسرار الدول والطوائف والمؤسسات التي تبطن ما لا تظهر، والتنبيه إلى خطرها والحذر من خداعها، ففساد السرائر عند الطوائف والهيئات الاجتماعية أخطر بكثير من فسادها على مستوى الأفراد، لأن فساد الطوية عند الفرد يكون في الغالب على نفسه، أما فساد الدول والطوائف فيتعدى إلى الأمة بأسرها.

التنبيه السادس:

أوجه في هذا التنبيه نصيحة إلى نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين في سبيل الله تعالى: بأن نعتني بإصلاح سرائرنا، وتفقدها بين حين وآخر، والمسارعة إلى إصلاح ما فسد منها، وأن لا نجعل خلافنا في وجهات النظر سبباً في الفرقة والشحناء فإن في هذا دليلاً على فساد في السرائر، وهذا باب من أبواب الشيطان، وآفة من آفات القلوب، ولا سيما بين أصحاب المنهج الواحد، وقدوتنا في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ

وسلف الأمة الصالح، حيث اختلفوا في بعض المسائل ولم يتفرقوا، بل بقيت المحبة والألفة والاجتماع بينهم، متعاونين على البر والتقوى.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه الاستقامة: (أن الاجتهاد السائغ لا يبلغ مبلغ الفتنة والفرقة إلا مع البغي، لا لمجرد الاجتهاد)[1]، والبغي آفة من آفات القلب، وعلامة على فساد في السريرة. قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة)[2].

هذا إذا كان الخلاف بين أهل الحق والعقيدة الصحيحة، أما إذا كان الخلاف مع ملل الكفر والبدع المغلظة فهو متعين وممدوح، وكذلك ما يترتب عليه من المنابذة لهم والافتراق معهم.

وبعد...

فهذا ما منَّ الله ﷻ به ويسره من الكتابة في هذا الموضوع المهم، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، فهو

(١) انظر الاستقامة: (١/ ٣١).

(٢) سير أعلام النبلاء: (١٠/ ١٦).

المـان بذلك والموفق لـه، وما كـان فيـه من خطـأ فمني ومن الشـيطان، وأسـتغفر الله ﷻ منـه، والحمـد لله رب العالمين، وصلى الله وسـلم وبارك على عبده ورسـوله نبينـا محمد وآله وصحبه أجمعين.

في يوم الاثنين ٦/ ١٢/ ١٤٣٣هـ

obeikandl.com